«المثقفون العرب والحضارة الغربية»
(ثقافة العولمة وعولمة الثقافة نموذجاً)

عبد القادر الرباعي

أستاذ، جامعة العلوم الإسلامية الأردنية، الأردن

الملخص

العولمة ظاهرة يسعى موجدوها من الغرب بعامة، ومن أمريكا بخاصة إلى السيطرة على العالم اقتصادياً وسياسياً وثقافياً، وإن كانوا يحاولون تجميلها بمسائل جوهرية مرغوب فيها مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان والقضاء على البطالة والفقر والجوع وغير ذلك. وهي – مثل الاستعمار القديم- تهدف إلى الاستيلاء على ثروات الآخرين ومواردهم، و محو الخصوصيات القومية والثقافية، لكنها تختلف عن ذلك الاستعمار بالأسلوب. إنها لا تستولي على هذه الثروات والمصادر، لكنها تقتحم ثقافات الشعوب وقيمها، وخصوصيات الدول القومية ومبادئها وقوانينها، من خلال الاختراعات العلمية الحديثة ووسائل الإدارة المستخدمة، وتقنيات الاتصالات الحديثة، وأشكال التواصل الاجتماعي الميسرة والمتحررة من أية رقابة قانونية.

لقد تباينت الآراء والمواقف من هذه العولمة لكن ما يهمنا هو موقف الأمة العربية من خطر العولمة الداهم . أعتقد أن أمتنا تقف اليوم أمام ثلاثة خيارات، هي:

الخيار الأول: أن ننساق وراء المغريات فيما يقدم لنا، ونقلده تقليداً أعمى مضحين بكل ما لنا من تراث وفكر ومبادئ.

الخيار الثاني: أن ننكفىء على ذواتنا مبتعدين بأنفسنا عما في العالم من تطور وتجديد لتتفشى فينا الخرافات، وتسود فينا الأوهام فتتعطل قوانا ويضمحل ذكاؤنا.

الخيار الثالث: أن نكون "أمة وسطاً" نعمل في اتجاهين:

أولهما أن نعزز ثقتنا بأنفسنا بالاستناد إلى موروث ثقافي وحضاري عظيم أصيل، وثانيهما أن نشارك في التطور والتحديث والمعاصرة بما لا يؤثر على خصوصيتنا التي نكون قد أرسينا مبادئها ثابتة وراسخة في قلوبنا ووجدناها واقعاً منتجاً في عملنا وسلوكنا. ويتطلب منا كلا هذين الاتجاهين واجبات، وأعمالاً منها: المحافظة على عقيدتنا بتمكينها في النفوس؛ لأنها الحافظ الأمين لنا من الزلل والخطأ والانحراف، والإيمان بالقيمة الفضلى لتراثنا والعمل على إحيائه بالعودة إليه والتنقيب

فيه لإبراز الجوانب المضيئة واستخدامها مادة أساسية في مناهجنا الدراسية وخططنا التربوية، إضافة إلى الحرص على اللغة العربية الفصحى تعليماً وتدريباً واستخداماً يومياً، وعلى الإعلام ووسائله المختلفة أن يسعى لتعميق الروح الدينية وإبراز أصالة التراث الحضاري والثقافي، وقيمة اللغة العربية لتعزز ثقافة أبنائنا بما لدى أمتهم من إنجازات إنسانية جليلة، وعلى الروابط والهيئات الثقافية أن تتبنى خططاً واعية وذكية خدمة للأهداف المبدئية والقومية.

أما الجانب الثاني "أي جانب المعاصرة" الموازي للجانب الأول "أي الأصالة" فيتطلب أعمالاً وتبعات، منها: المبادرة لاكتساب كل جديد لا يتعارض وقيمنا الثابتة كاكتساب مهارة الحاسوب والإنترنت وغيرها من المهارات والمعارف النافعة، وضرورة الاهتمام الزائد بالترجمة من كل اللغات المفيدة وعلى كل صعيد، ومن المفيد أن تؤسس مراكز عربية متخصصة ومسؤولة في ترجمة ما يستجد من معارف وعلوم. كما لابد من متابعة العصرية في النقد والأدب وتوظيف ذلك في النهضة الأدبية العربية على ألا نغالي في هذا مغالاة، ويتحول فيها أدبنا إلى أدب غريب عن أذواقنا وبعيد عن طبائعنا. إضافة إلى ذلك لابد من العمل على الحفاظ على الأدمغة العربية المبدعة وإيقاف هجرتها والاستفادة ممن هاجر بكل الوسائل والإمكانات.

مقدمة

من المعروف أن التاريخ البشري ما زال يشهد حركة دائبة ومستمرة، وأنه في حركته تلك سجل على صفحاته تغيرات جذرية ومفصلية دالت فيها دول وجماعات وانبثقت منها دول وجماعات. لكن تلك التغيرات لم تكن كلها خيراً، كما لم تكن كلها شراً، وإنما تراوح الخير والشر بين الذاهب والآيب من تلك الدول والجماعات.

ومن الطبيعي أن يجلب التغير المستمر أنظمة سياسية واجتماعية وثقافية جديدة بدل تلك الأنظمة السابقة التي آلت إلى زوال؛ فكل دولة أو جماعة لها منظورها ومصالحها. ومن منطق الأشياء أن تفرض القوة المهيمنة وجودها وأسلوبها في إدارة أسباب الحكم الأساسية في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة وما يتبع ذلك من وسائط الحياة ووسائلها ليشمل الكل والجزء، أو الأساسي والثانوي، على السواء.

وتبعاً لهذا ينشأ في دورة التغير تلك ما يمكن أن يسمى المركز والهامش بحسب مفاهيم مختلفة لمضامين هذه الثنائية التي تكون صياغتها ووضع أسسها عادة من منظور المركز وتتشكل بإرادته وتقديراته ومصالحه؛ ذلك لأنه صاحب الهيمنة والسلطة والسطوة. فهو القائد والآخرون تبع له. إن التجارب التاريخية والحياتية التي نعرفها تسوقنا دائماً إلى أن للمراكز منظوراً واحداً يتكرر تاريخياً هو العمل الدؤوب على ابتداع منظومة متكاملة تنسج فيها الخطوط الأساسية المكونة لنظامه، وتبزغ منها الأذرع الحامية لسلطانه، والضامنة لبقاء تحكمه بالأرض والشجر، ودوام هيمنته على البشر والحجر.

إن نزعة الهيمنة المشار إليها أدخلت العالم - منذ نشوئه: زمن الإمبراطوريات الكبرى وقبلها وبعدها - في صراعات وحروب طحنت البشر وأحرقت اليابس والأخضر على الأرض، وانتهت إلى خسارات لدى كل من المنتصر والمنكسرمعاً. وإذا أردنا تجسيد الواقع بعقلانية بعد كل نهاية صراع مادي نفعي لا روحي بين خصمين حاضرين، قلنا: كانت النهايات فواجع وآلاماً ومرارات للإنسانية المروعة بما فقدته نتيجة طموحات فردية أو جماعية زائفة وزائلة.

ولم يكن عالمنا الحديث استثناء من ذلك فمن الحرب العالمية الأولى إلى الثانية إلى الحرب الباردة بين القطبين الرئيسيين بقيادة روسيا وأمريكا، وإلى ضياع حق معلوم للعرب والمسلمين في فلسطين ومنحه ظلماً لآخرين مشتتين في كل مكان نتيجة سياسة المركز المنتشي بنصره، الباغي في حكمه، ووعده المشؤوم الذي لم يكن أحد في الهامش قادراً على منعه على الرغم من جوره الذي لا ينكره أحد من العالمين إلا المستفيد منه أولاً وآخراً.

وفي دورة التاريخ ومن خلالها سقط، في الثلث الأخير من القرن العشرين، أحد القطبين نتيجة انتهاجه سياسة مادية تحكمية غافلة عن حاجات الإنسان الروحية من ناحية، ودهاء الساسة في دهاليز القطب الآخر من ناحية ثانية. كان من الممكن أن يكون في ذلك السقوط منجاة للإنسانية من شر كانت تتخوف من هلعه، لكن القطب الآخر المزهو بأحاديته لم يبرأ من النزعة السلطوية المهلكة للإنسانية على مدى التاريخ كما أسلفنا. إن خلو الساحة لهذا القطب الذي غدا الوحيد المتمكن في العالم أغوته قوته على أن يفرض جبروت سلطانه على المعمورة بأسرها؛ فجاء لإنجاز ذلك عملياً بما سمي العولمة (Globalization).

فالعولمة - كما يفهم من صياغتها اللغوية المستند إلى الجذر (فوعلة) - تعني قولبة المرتكزات الحياتية في العالم لتندرج في بوتقة واحدة موحدة. إنها، بالمفهوم هذا، لا تختلف واقعاً عما كانت تدعو له الاشتراكية الاجتماعية المنهارة مع انهيار موجدها ومطبقها الاتحاد السوفييتي، حتى مع تبنيها منظومة مختلفة من القيم المضادة ؛ هي قيم الرأسمالية العالمية، أو ما أصبح يعرف بثقافة العولمة.

لقد دار حول العولمة نقاش حاد في العالم بأسره، حتى إن ما كتب عن هذه المنظومة الحياتية الجديدة الطارئة فاق كل ما كتب عن غيرها في زمنها أضعافاً مضاعفة. ومن منطق

الأشياء أن تثير الظاهرة مثقفي العالم فانبروا يتصدون لها بالنقاش والحوار حول ماهيتها وغاياتها وآثارها؛ لأن تأثيرها لا يتركز في حالة محددة من جوانب الحياة، وإنما يخترق كل الحواجز ويكسر كل القواعد ليتسلل إلى كل مفاصل الدول والمجتمعات والثقافات الإنسانية الواقعة على خريطة العالم. فما هذه العولمة؟ وما أهم آثارها عالمياً؟ وكيف استقبلها المثقف العربي؟.

العولمة في تعريفها العام

كثرت التعريفات التي أطلقها المتصدون لها؛ فقد أشار الدكتور أحمد عز إلى أهم تعريفاتها فقال: « العولمة من أكثر المذاهب التي أثارت جدلاً حول معناها ومداولاتها، ويرى كثير من المفكرين أن مفهوم العولمة لا يزال غامضاً وضبابياً ولم يستقر بعد. ومن أهم تعريفاتها تعريف مالكوم ووترز: العولمة هي عملية اجتماعية يتم من خلالها تقليص القيود التي تفرضها الجغرافيا على الأنظمة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية بحيث يشهد المجتمع ثقافة واحدة. ويذكر ووترز تعريفاً آخر للعولمة على أنها كل المستجدات والتطورات التي تسعى إلى جعل الاقتصاد العالمي اقتصاداً واحداً. أما توماس فريدمان فالعولمة في وعيه هي توسيع النموذج الاقتصادي الأمريكي وفسح المجال ليشمل العالم كله؛ أي أن العولمة تقود إلى الأمركة ».

ويندرج تعريف خلدون النقيب في السياق ذاته؛ فالعولمة – بحسب النقيب – هي فصل من فصول الصراع والتنافس بين اقتصاديات وثقافات توظف فيها المعلوماتية والتقنية المتقدمة ووسائل الاتصال للتحكم والسيطرة على مقدرات العالم». (http://forum. alnel.com/thread-5763.html)

أما جون توملينسون صاحب كتاب « العولمة والثقافة « فيلقي على العولمة مصطلحاً يوجز مهمتها هو المرتبطية المعقدة (Complex Connection) فهي – كما عرفها – تشير إلى تلك الشبكة سريعة التطور، ومتزايدة الكثافة من الترابطات Interconnection والعلاقات المتبادلة Interdependences التي تميز الحياة الاجتماعية الحديثة. إن فكرة المرتبطية توجد بصورة أو بأخرى في أكثر التقارير المعاصرة عن العولمة. وهو يستند لتوضيح ما قد يكون غامضاً في كلامه إلى مقولة ماغرو MacCrew عن العولمة على

اعتبار أنها ببساطة تقوية لأواصر الترابط العالمي ، ويشدد على تعدد الروابط التي ينطوي عليها ذلك. فماغرو يقول: «في الوقت الحاضر نجد أن السلع ، ورأس المال، والبشر، والمعرفة، والصور، والجريمة، والملوثات، والمخدرات، والأزياء، والمعتقدات تتدفق كلها بسهولة عبر الحدود الإقليمية. إن الشبكات والحركات والعلاقات الاجتماعية العالمية واسعة الانتشار في كل المجالات تقريباً». (العولمة والثقافة، ترجمة إيهاب عد الرحيم محمد، عالم المعرفة ألعدد 354، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، أغسططس 2008 ، ص10).

وبحسب رولاند روبرتسون «الذي قدم صياغة لفكرة انضغاط العالم إلى مكان واحد»: «هناك أربع رتب تتفاعل معاً في مفهوم العولمة، هي: 1- الأفراد من البشر، 2- المجتمعات الوطنية، 3- النظام العالمي للمجتمعات، 4- والجماعية Collectivity المهيمنة للجنس البشري». وعلى الرغم من أن التفاعل بين هذه الرتب هو سعي نحو حالة إنسانية عالمية على اعتبار أن العالم مكان واحد، فإن «نموذج روبرتسون للأَحَدِيّة هو نموذج يمكن فيه الاختلاف الاجتماعي والثقافي». وبذا يغدو هذا النموذج قابلاً «للتكامل والتمايز» معاً. (السابق ص22 – 23). وليس هناك اتفاق لدى فلاسفة الغرب – كما ينقل عنهم توملينسون – حول العولمة. فالفيلسوف شيلرScheller يعد من أشد المناصرين لتوجه قدرة الرأسمالية العابرة للحدود القومية على توزيع سلعها الثقافية حول العالم لتنتهي إلى نتيجة هي دمج كل الثقافات القومية في نظام اقتصادي رأسمالي عالمي واحد تنشأ منه ثقافة جامعة تصوغها القوة الأمريكية المهيمنة (السابق، ص112). بل إن فيلسوفين آخرين، هما هيرمان Herman وماكنزيMcChensey ، طوراً أفكار شيلر إلى مايشبه الدمج الأيديولوجي البديل للاستعمار القديم، حيث قالا: « إن الغزو الحاسم للأنظمة العالمية العابرة للقوميات هو التطبيق العملي للنموذج... وهذا الغزو الرئيسي يحدد النهج الذي سيُتّبع، كما أنه يجذب الدولة موضع النقاش إلى فلك مصالح القوى المهيمنة. وهذا هو الشكل الإمبريالي الجديد الذي حل محل الطرق الاستعمارية الأكثر ابتذالاً، وفظاظة، وقدماً» (السابق، ص114). وكلامهما واضح جداً في إشارته إلى أن العولمة إنما هي استعمار جديد بأيديولوجية جديدة لكنها غزو يجر الدول إلى فلك القوى الإمبريالية الغربية المهيمنة خدمة لمصالحها هي دون غيرها.

لكن لاتوش Latouche يشكك في دوام انتصار الغرب على تغريب العالم. فإقرار الحداثة العالمية لا يمثل – بحسب رأيه – « هيمنة متواصلة للغرب مبدأً ثقافياً مجرداً على بقية العالم». ويتصل هذا – بصورة مباشرة – بالخصائص الثقافية للعولمة؛ أي الوعي المتزايد بالعادات والمعتقدات وأنماط الحياة الغربية المختلفة التي تتسم بالاستهلاك المرتفع، وبالنظر إلى هذا فإنه من غير المقنع الحديث عن الحالة الثقافية الحالية أو المستقبلية على أنها انتصار للغرب.(نفسه، ص132).

وفي موضع آخر يرى لاتوش أن العولمة التي أثرت في مواقع استقبلتها بتفاؤل وتأثرت بها إيجابياً قد آلت الآن إلى خواء وشكوك. قال: « أنا أحلل الغرب كضرب من الآلات العملاقة التي أصبحت الآن مجهولة الهوية، ولا متوطنة، ومقتلعة من جذورها التاريخية والجغرافية ... فالغرب لم يعد يعني أوروبا، لا جغرافياً ولا تاريخياً. إنه لم يعد حتى مجموعة من المعتقدات التي تتشارك فيها مجموعة من الأشخاص المتفرقين على سطح الأرض. وأنا أراها كآلة، لا شخصية، ولا روح فيها والتي أثرت في الجنس البشري لكي يخدمها». (نفسه، ص125).

ويذهب غيدنز Giddens إلى أبعد من هذا فيرى أن العولمة الآن تدمر البنى الخاصة بها، مع تراجع هيمنة الغرب على بقية العالم كما يرى. قال: «لقد كانت المرحلة الأولى من العولمة محكومة ببساطة... فلا توجد حضارة صنعت لنفسها شيئاً كان له تأثير شامل ومنتشر في العالم مثلما صنعته... إلا أنه لا يمكن الحديث عنها اليوم على أنها إمبريالية أحادية الاتجاه، حيث إنه، بشكل متزايد، لا يوجد أي اتجاه للعولمة على الإطلاق؛ وهكذا فإنه يجب عدم الخلط بين المرحلة الحالية من العولمة والمرحلة السابقة . تعمل المرحلة الحالية بصورة متزايدة على تدمير البنى الخاصة بها «. (نفسه ص127) .

ولعل الفيلسوف السياسي جون غراي (Gray.J) من أبرز الذين ينتقدون العولمة؛ فهي في نظره تمثل « النزعة الفردية الاقتصادية التي سادت في إنجلترا خلال القرن التاسع عشر ونظيرتها الأمريكية خلال القرن العشرين «ويصفها بأنها» الأقل نفعاً والأكثر خطورة في الحقيقة للتقليد الغربي». ولدى غراي سببان للاعتراض على النزعة الكونية للعولمة؛ أولهما : إسقاطها «غير المبرر للقيم الغربية على كل الثقافات العالمية الأخرى». وثانيهما: «أنه ينظر إلى الفكرة المعاصرة الخاصة بوجود ثقافة كونية في حالة توتر متأصل مع الحياة

الثقافية الإنسانية». وفي رأيه أيضاً أن هذه النزعة العالمية تعد سيئة بالقدر الذي تهدد به تقويض التعددية الطبيعية لطرق الحياة المختلفة.(نفسه، 93-95).

ويصل توملينسون بعد هذا التجاذب بين فلاسفة الغرب حيال العولمة إلى القول إن «قبول الثقافة العلمية التكنولوجية للغرب، وعقلانيته الاقتصادية، حتى بعض جوانب نزعته الاستهلاكية، قد يوجد جنباً إلى جنب مع رفض قوي لنظرته العلمانية، بالإضافة إلى إباحيته الجنسية، ومواقفه تجاه علاقات الأسرة والنوع». ويركز توملينسون هنا على كثير من المجتمعات الإسلامية التي تقف الموقفين المتباينين السالفين: قبول الجانب الأول ورفض الجانب الثاني. (نفسه، ص133).

ولعل الأخطر في العولمة ما يشير إليه جراهام طومبسون من أنها تهدف إلى تحييد الدولة القومية وإبعادها عن تأدية واجباتها التي كانت منوطة بها في التاريخ الإنساني الماضي الطويل كله؛ وذلك تسهيلاً للشركات المتعددة الجنسيات العابرة للقارات والقوميات الوصول إلى كل مكان في العالم بعيداً عن التعقيدات السياسية في سبيل التواصل الاقتصادي العالمي بكل أشكاله. فبعد أن ربط العولمة بالاقتصاد وجعلها في القلب من الحقبة الجديدة التي يتحدد فيها الشطر الأعظم من الحياة الاجتماعية بفعل صيرورات كونية تذوب فيها الثقافات، والاقتصادات، والحدود القومية (ما العولمة: الاقتصاد العالمي وإمكانت التحكم، ترجمة د. فالح عبد الجبار، عالم المعرفة، العدد273، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر 2001، ص9). قال: « لقد رأينا أن هناك موضة رائجة في تأكيد أن زمن الدولة القومية قد ولى، وأن التحكم على المستوى القومي عديم الفاعلية بوجه العمليات الاقتصادية والاجتماعية الكونية ... كما يقال: إن السياسات والخيارات السياسية القومية قد نُحِّيت جانباً بفعل قوى السوق العالمية. فرأس المال متحرك، حر من أي روابط قومية، وهو يستقر حيثما تمليه المنافع الاقيصادية»(السابق، ص 586). فالاقتصاد العالمي أصبح محكوماً لقوى السوق، وأصبحت الشركات العابرة للقوميات لا تدين بالولاء لأية دولة قومية، وإنما هي محكومة بما تقتضيه مصلحتها في السوق الكوني العام.

وهناك تعريفات ومناقشات إضافية اجتهد في وضعها بعض المثقفين العرب: فهذا فارس فائق ظاهر يرى أن العولمة تندرج في النظام العالمي، وأنها ذات مفهوم عام يتدخل في

كل الأنشطة الإنسانية على الأرض. فهي لا تخص جانباً دون آخر، وإنما ترتبط بها جميعاً وتمس في كل منها لبه وجوهره، لكنه يستشير اللغة لتحديد مفهوم العولمة فيقول: «ومن الأهمية هنا الرجوع إلى اللغة لتحديد المعنى اللغوي لمفهوم العولمة، مع أن الرجوع إلى اللغة هنا ليس مقصوداً به الوقوف عند العقلية المعجمية الشكلية، بقدر ما هو استئناس بأساس مهم يجب الاسترشاد به في ضبط مفهوم يثير الكثير من الاهتمام والجدل فالعولمة مشتقة من "عالم"، ومصطلح العولمة يعود في الأصل إلى الكلمة الإنجليزية "Global" والتي تعني عالمياً أو دولياً أو كروياً، أما المصطلح الإنجليزي "Globalization" الذي عندما يذكر يجعل الذهن يتجه إلى الكونية، وإلى وحدة المعمور من الكون الذي نعيش عليه؛ كونه يعبر عن حالة تتجاوز الحدود السياسية الراهنة للدول إلى آفاق أوسع وأرحب تشمل العالم بأسره فيترجم إلى أقاليمها، حيث تعكس المتطلبات التي يفرضها التكامل الاقتصادي العالمي". كما أن العولمة – برأيه – ليست مصطلحاً جديداً في التنمية الاقتصادية وإنما هي: "امتداد طبيعي لانسياب المعارف وتداولها بين الدول". ويرى أن النظام العالمي الجديد مهتم "بمفهوم العولمة وبترديد منطلقاتها" التي كثر الحديث عنها ليس على المستوى الأكاديمي فحسب، وإنما أيضاً على مستوى أجهزة الإعلام والرأي العام والتيارات السياسية والفكرية المختلفة، إلى الحد الذي دفع ببعضهم إلى القول إن هناك سيلاً أشبه بالطوفان في الأدبيات التي تتحدث عن هذا المفهوم. ولم يعد الأمر يقتصر على مساهمات الاقتصاديين وعلماء السياسة أو المهتمين بالشؤون العالمية، بل تعدى ذلك ليشمل مساهمات الاجتماعيين والفلاسفة والإعلاميين والفنانين وعلماء البيئة والطبيعة وغيرهم ولا غرابة في ذلك، فمفهوم العولمة له من الجوانب والأبعاد الكثيرة ما يثير اهتمام كل هؤلاء؛ كون العولمة تمثل الوضع الذي تهيمن فيه القوانين الاقتصادية على السلطة السياسية. (http://blog.amin.org/faresdahaher/2010/06/02)

أما صادق جلال العظم، المفكر السوري، فالعولمة عنده هي رسملة العالم؛ أي إعادة لنهج الاستعمار القديم بثوب الرأسمالية الجديد في نطاق الغاية التي لا تغيب عن عقلية المستعمر في أكل السمك الكبير للصغيرأو استغلال المركز لمقدرات الأطراف. قال: «العولمة وصول نمط الإنتاج الرأسمالي، عند منتصف هذا القرن تقريباً إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول، إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج

ذاتها؛ أي أن ظاهرة العولمة التي نشهدها هي بداية عولمة الإنتاج والرأسمال الإنتاجي وقوى الإنتاج الرأسمالية، ومن ثم علاقات الإنتاج الرأسمالية أيضاً، ونشرها في كل مكام مناسب وملائم خارج مجتمعات المركز الأصلي ودوله. العولمة – بهذا المعنى – هي رسملة العالم على مستوى العمق بعد أن كانت رسملته على مستوى سطح النمط ومظاهره قد تمت. بعبارة أخرى ، إن ظاهرة العولمة التي نعيشها الآن هي – بحسب رأيه – « طليعة نقل دائرة الإنتاج الرأسمالي إلى الأطراف بعد حصرها هذه المدة كلياً في مجتمعات المركز ودوله في الواقع؛ أن عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق بلغت حد الإشباع بوصولها إلى أقصى حدود التوسع الأفقي الممكنة وشمولها مجتمعات الكرة الأرضية كلها باستثناء جيوب هنا وهناك ـ كان لابد لحركية نمط الإنتاج الرأسمالي وديناميكيته من أن تفتح «أفقاً جديداً» لنفسها وأن تتجاوزحدوداً «بدت ثابتة سابقاً» عن طريق نقلة نوعية جديدة تأخذ الآن الشكل المزدوج لعولمة دائرة الإنتاج ذاتها ونشرها في كل مكان مناسب تقريباً على سطح الكرة الأرضية، من ناحية وإعادة صياغة مجتمعات الأطراف مجدداً، في عمقها الإنتاجي هذه المرة، وليس على سطحها التبادلي التجاري الظاهر فقط، من ناحية ثانية؛ أي إعادة صياغتها وتشكيلها على الصورة الملائمة لعمليات التراكم المستحدثة في المركز ذاته (صادق جلال العظم، ما هي العولمة؟ مجلة الطريق، العدد رقم 4، تموز/ آب 1997 ص 20).

من الواضح أن العظم – وهو اشتراكي عتيد – حصر العولمة في الهيمنة الاقتصادية لرأسمالية الغرب دون أن يتطرق للهيمنة الثقافية. ويبدو أنه لا يضع الهيمنة الثقافية أولوية لدى العولمة توازي الأولوية الاقتصادية، ففي مقابلة له مع (جمعية أطاك المغرب لمناهضة العولمة الرأسمالية – مجموعة طنجة) أجاب عن سؤال حول المسألة الثقافية، فقال: «العولمة الرأسمالية تقفز من مكان إلى آخر على سطح الكرة الأرضية ، وبسرعة هائلة دون الاهتمام كثيراً بالثقافة المحلية، أو الخصائص القومية الموضعية، أو بالطبائع الإثنية إلا بما يخدم مصالحها وأغراضها ولا يصطدم بمطالبها الحيوية، أو يضر بها، وهذا أعطى القوى المحلية والإقليمية حرية أوسع في التصرف الثقافي والديني والاجتماعي». (www.attactanger.com/news.php?extend.149 -Cached)

وفي محاضرة له في جمعية بيروت التراث أوضح موقفه من عولمة التراث بتأكيد الطابع الاقتصادي للعولمة واستثناء الثقافة من اهتماماتها. قال: "بعد التأمل

في عنوان موضوع حديثي هذا المساء، أي (تراثنا والعولمة) تبين لي أنه لا علاقة – في الحقيقة – بين تراثنا بالمعنى المتداول حالياً للتراث والعولمة». ويوضح رأيه أكثر حين يشير إلى الخطاب الثقافي العربي الحالي بما لا يبتعد عن السخرية، فيقول: «كثيراً ما نجد أن الخطاب الثقافي والفكري العربي الراهن عن العولمة منشغل بمماحكات لفظية وجدالات خطابية لا طائل منها حول أفضلية كلمات على كلمات مثل العولمة أوالكوكبة أو العالمية، أو الكونية وما إلى ذلك من تأكيدات لغوية تفيدنا بأن عبارة عولمة هي على وزن فوعلة»[!]. (تراثنا: الواقع والمستقبل في ظل العولمة ، نشر جمعية بيروت التراث، بيروت، 2002، ص99–100).

لقد اختصر العظم مناقشات المثقفين والمفكرين العرب إلى «مماحكات لفظية، وجدالات خطابية لا طائل منها»، وكأنه يريد القول: إنه وحده القادر على تشخيص حالة العولمة لكونه أكثر العالمين بأسرارها. والعولمة كما قال عنها في مجلة الطريق: نظام رأسمالي متكامل هدفه رسملة العالم غير المرسمل، ثم تجميع مقدرات الأطراف لتكون في خدمة المركز وتحت سلطته. لكنه في محاضرته المشار إليها هنا يخالف ما ذهب إليه هناك، فالعولمة – كما قال: « ظاهرة اقتصادية في أساسها وجذرها، قيد التشكل والتكوين والصنع مشكلة بذلك صيرورة متحركة وليس واقعة قائمة مستكملة لشروطها وخصائصها، أو واقعة ذات معالم واضحة وثابته نسبياً؛ أي عملية ما زالت مستمرة التكون لم تصل بعد إلى حالة من الاستقرار النسبي والتوازن عالمياً ومحلياً وتاريخياً» (السابق، ص101).

إن العظم لا يخالف نفسه فقط ولكنه يخالف الواقع الراهن المتطور للعولمة. فقد رأينا بعض مفكري الغرب – مثل غيدنز – يرى أن العولمة تخطت عملياً المرحلة الأولى ودخلت إلى المرحلة الثانية التي بدأت تدمر فيها ذاتها. ويبدو أن ذاتية العظم ساقته إلى أن يخالف الواقع العملي حين خطأ الباحثين العرب المهتمين بالظاهرة، قائلاً: « ليس صحيحاً زعمهم أن ظاهرة العولمة تؤدي إلى تراجع مفهوم الدولة وتدهور مكانتها على الصعيدين المحلي والدولي، وأن الشركات المتعددة الجنسيات والمتعدية لها هي على وشك الحلول محل الدولة مما يؤدي إلى قول أحدهم: إن العولمة عالم من دون دولة». والحقيقة أن أكثر العارفين لثقافة العولمة من العرب والغرب يقولون بما ينكره العظم. (السابق ص105).

وعلى العكس من العظم ينظر عبد الإله بلقزيز المفكر المغربي للعولمة على أنها تسعى لإزاحة الثقافة الوطنية من أجل فرض ثقافتها هي، وما الهيمنة الاقتصادية والسياسية إلا وسيلة لسيادة ثقافتها وهيمنتها على كل شؤون الحياة في غير مجتمعاتها، ولا فرق في هذا بين مجتمعات الشمال والجنوب. إنه يرى أن هناك ثلاث حقائق لا بد أن يتدبرها كل من يسقط مكانة البعد الثقافي من أهداف العولمة.

أولى هذه الحقائق: أن مجال القيم لها في ذلك البعد الثقافي آثار بالغة، بل غدا هذا المجال ساحة من ساحات فعلها المباشر، كون المادة الثقافية – المكتوبة والمسموعة والمشاهدة – سلعة لدر الأرباح، وأصبح الإعلام الفضائي مثل محطة (CNN) وشبكة المعلومات الإنترنت أسلوباً أمثل لترويج تلك المادة الإعلامية للعولمة؛ «حتى إن شدة الاهتمام بالوجه الثقافي للعولمة، والانصراف إليه، أوحى لكثيرين بأن العولمة إنما تُختصر أو تكاد في ظاهرتين ثقافيتين: الإعلام الفضائي، والإنترنت».

وثانيها : أن العولمة لم تتوسل – قصد تحقيق استراتيجيتها للسيطرة والهيمنة – بالتقانة الحديثة وبأدوات الاقتصاد والتجارة والمال والسياسة والحرب فحسب، وإنما توسلت إلى ذلك بأدوات ثقافية أيضاً، بل إن هذه الأدوات كثيراً ما كانت أظهر ضمن ترسانة الموارد والوسائل المستعملة لأنها كانت، وما زالت، أكثر فاعلية من حيث الأثر، وأقل كلفة مادياً وأدبياً.

وثالثها: أن للعولمة ثقافة خاصة يمكن تسميتها بثقافة العولمة: الثقافة التي تبشر بقيم العولمة وتروج لها وتلمّع فوائدها ومكاسبها وتغضي عن مساوئها أو تهون من وطأتها، وليست ثقافة العولمة هذه سوى إيديولوجيا العولمة، أي تلك المنظومة من الأفكار والمفاهيم التي تبررها (العولمة) وتقدمها للرأي العام في صورة البديل الإنساني الأكثر نجاعة للمستقبل.

وأظن أن ما ذهب إليه بلقزيز يمكن أن يكون أقرب إلى الإدراك والفهم حين نتبصر الحقائق التي أتت بها العولمة وغدت تطبق عملياً على أرض الواقع عالمياً . ولعل هذا ماحدا ببعض الدول الغربية نفسها من اتخاذ مواقف شبه عكسية لأهداف العولمة الثقافية، كما هو الشأن لدى فرنسا مثلاً. ويؤكد مخاوف فرنسا من خطر العولمة على ثقافتها ولغتها ما يذكره مارك بوستر من أن الفرنسيين أصروا «في أثناء مفاوضات الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة (الجات) على حصص لفرنسا تحسب على أساس من المنتجات الثقافية الأمريكية».

ويضيف بوستر أن دارسي الحالة الفرنسية لاحظوا «على مدى بضع سنوات مضت اهتماماً بالحفاظ على كل ما هو فرنسي واحتراساً من النفوذ الأمريكي». (عز الدين إسماعيل: العولمة والنظرية الأدبية، القاهرة، نوفمبر 2000 ص20).

ولم يغفل بلقزيز عن هذه المواقف المضادة في العالم لهذا تنبه إليها ونبه عليها، فقال: «إن ثقافة العولمة والقيم التي عليها تتأسس، لا تمثل مبعث قلق وخوف بالنسبة إلى الثقافات غير الغربية – ومن جملتها الثقافة العربية – فحسب، وإنما هي تبعث على القلق والخوف في الغرب نفسه؛ الخوف على قيم الثقافة الغربية التي انتهلت البشرية وثقافاتها منها، والخوف من ابتذال هذه القيم وتزويرها وتجويفها من كل مضمون إنساني وجمالي رفيع». ولقد ذكّر بممارسة العولمة لأسلوب الإرهاب في تعاملها مع الآخر حين أشار إلى أن العولمة تلجأ إلى أسلوب العنف لفرض هيمنتها الثقافية على العالم بدلاً من أسلوب الإقناع عن طريق الحوار. قال: «إن هذه العولمة (الثقافية) لا تفرض نفسها على العالم من طريق الحوار والإقناع، وإنما بأبشع أنواع العنف الرمزي والعدوان الأدبي إلى حد استفزاز مراكز تاريخية للثقافة الغربية (الاستنفار الثقافي الفرنسي ضد الاختراق الأمريكي)، فكيف بما تفعله "بالهوامش" الثقافية: ثقافات المجتمعات المغلوبة على أمرها". (http://www.alkhaleej.ae/portal/29/3/2010)

ولم يبتعد حسن حنفي كثيراً عن بلقزيز في إشارته إلى خطر العولمة الثقافية حين قال في محاضرة بجامعة فيلادلفيا في الأردن: «إن مخاطر العولمة على الهوية الثقافية هي مقدمة لمخاطر أعظم على الدولة الوطنية والاستقلال الوطني، والإرادة الوطنية».(الهوية والعولمة، تحرير صالح أبو إصبع وآخرين، منشورات جامعة فيلادلفيا، عمَان / الأردن، 1999، ص33).

وعنده أن «العولمة هي أحد أشكال الهيمنة الغربية الحديثة التي تعبر عن المركزية الأوروبية في العصر الحديث» وهي واحد من الأشكال التي زرعها الغرب خارج حدوده للسيطرة على العالم شأنها شأن مفردات أخرى مثل «العالم ذي القطب الواحد، ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات، والإدارة العليا Governance، وثورة الاتصالات، والعالم قرية واحدة، وكلها مفاهيم غير بريئة تكشف عن سيطرة المركز على الأطراف في تاريخ العالم الحديث». (السابق، ص31).

والعولمة – برأيه – تعني أيضاً: «مزيداً من تبعية الأطراف للمركز؛ تجميعاً لقوى المركز وتفتيتاً لقوى الأطراف، بما في ذلك الدولة الوطنية... التي قاومت شتى أشكال الهيمنة القديمة والجديدة حتى انهيار المعسكر الاشتراكي، فتقذف عليها مفاهيم أشبه بالسوط على ظهر من لا يدخل في بيت الطاعة في نظام العالم الجديد: حقوق الإنسان، حقوق الأقليات، حقوق المرأة، وقوى الدعم الغربي لمراكز حقوق الإنسان بالمفهوم الغربي الفردي دون مراعاة لحقوق المواطنة وحقوق الشعوب». (السابق، ص33). وهو– مع ذلك – لا يدفع إلى مواقف سلبية إزاء تجديد الذات العربية خوفاً من العولمة ومفاهيمها الغربية السابقة؛ ذلك أن الدفاع عن الهوية الثقافية ضد مخاطر العولمة لا يتأتى – برأيه – عن طريق الانغلاق على الذات ورفض الآخر، وإنما بإعادة بناء الموروث القديم المكون الرئيسي للثقافة الوطنية بحيث تزال معوقاته، وتستنفر عوامل تقدمه، وأيضاً بكسر حدة الانبهار بالغرب، ومقاومة قوة جذبه، وكذلك بعودة الثقة للأنا وبقدرتها على الإبداع بالتفاعل بين ثقافتها وثقافة العصر. (السابق ص38).

يتضح من مناقشات حسن حنفي استيعابه لعالم العولمة وأهدافها المعلنة والخفية في تقوية المركز على حساب الأطراف، دون وضع أي اعتبار للخصوصيات الثقافية والوطنية والمفاهيم والعادات الاجتماعية، لكنه في الوقت ذاته لايدفع المجتمع العربي إلى التقهقر أو المواقف الرافضة المتشنجة تجاه العولمة التي تنعكس آثارها سلباً على بناء المجتمعات المتجددة، وإعاقة التقدم ومواكبة التحديث الذي تحتاجه تلك المجتمعات المتحضرة، والمجتمع العربي واحد منها، والمأمول أن يكون في طليعتها.

العولمة في حوارها المعمق

تلقى نفر من المفكرين العرب هذه المواقف المتجاذبة وأمثالها في قبول العولمة ورفضها وناقشوها بإفاضة واتخذوا منها مواقف مؤثرة؛ مؤيدة لبعض منطلقاته ومتشككة أو رافضة لبعضها الآخر. فهذا **السيد ياسين** يرى في تعريف العولمة عدم الركون إلى تعريف واحد معين أومحدد: « فصياغة تعريف دقيق للعولمة تبدو مسألة شاقة نظراً لتعدد تعريفاتها التي تتأثر أساساً بانتماءات الباحثين الأيديولوجية واتجاهاتهم رفضاً أو قبولاً (مجلة المستقبل العربي، بيروت العدد 228، شباط ، 1998 ص6).

والسيد ياسين مثقف مصري عني بالعولمة وآثارها، فهو يرى أن العولمة في العصر الراهن تعيد تشكيل المجتمعات في إطار حوار الحضارات. قال: « لا يمكن لأي باحث جاد في مجال حوار الحضارات أن يتجاهل موضوع العولمة بتجلياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وذلك لسبب بسيط مؤداه أن العولمة في الوقت الراهن هي العملية التاريخية الكبرى التي تعيد تشكيل المجتمعات المعاصرة». (مقال بعنوان: ظاهرة الصراع ضد العولمة، نشر في جريدة الجمهورية اليمنية، صنعاء، أيلول 2006).

وكان قد استعرض في المقال ذاته الشعارات الكبرى التي قدمتها العولمة لتغطية أهدافها في الهيمنة الاقتصادية قائلاً: «لعل أبرز سلبيات العولمة – على الرغم من شعاراتها المرفوعة عن الديموقراطية، والتعددية، واحترام حقوق الإنسان – تتعلق بسيطرة الشركات المتعددة الجنسيات على مجمل الاقتصاد العالمي، وقدرتها على سحق المنافسين الصغار؛ ذلك أن هذه الشركات مدعومة بسياسات الحكومات التي تنتمي إليها كالشركات الأمريكية التي تتبنى أيديولوجيا العولمة: البقاء للأصلح».

ومن سلبيات العولمة – برأيه وغيره من نقادها في المنظور السياسي – أنها « تؤدي إلى ظواهر عدم الاستقرار السياسي في عدد من البلاد النامية في العالم الثالث «.أما في الجانب الثقافي فإن من سلبيات العولمة أنها ذات تأثير صارخ على الهويات الثقافية في العالم الثالث باستخدامها وسائل الثورة الاتصالية الكبرى وإمكاناتها في القدرة على النفاذ إلى عقول ملايين الناس ممن ينتمون إلى بلاد العالم ووجدانهم، وهم الذين يستظلون بقيم ثقافية متنوعة» (المقال السابق).

واستذكر السيد ياسين في مقاله (إشكالية العولمة) الذي نشرته جريدة الأهرام المصرية، ونقل على موقع (أكاديمية قامات الثقافية) استذكر استعادة العولمة للاستعمار القديم في نهبه لدول الجنوب، بعد الحرب العالمية الثانية، والسيطرة الكاملة على المؤسسات التمويلية الدولية (البنك الدولي، وصندوق الدولي) التي هيمنت على مسارالتنمية في تلك الدول من خلال المساعدات الاقتصادية والقروض»، مركزاً في ذلك على طبيعة النموذج الرأسمالي في مثل هذه الممارسات قديماً وحديثاً. والنموذج الرأسمالي مؤسس على الفجوة بين عمومية عملية الإنتاج، وفردية الاستحواذ على الفائض. وقد أدت ممارساته هذه إلى انسحاب الدولة من الإشراف على الاقتصاد بصورة أو أخرى، وحرية

السوق المطلقة؛ الأمر الذي كان من نتائجه المباشرة الأزمة المالية العالمية .www.qamat .net.vb /hgHodvm

وفي إطار دخول العالم القرن الواحد والعشرين فإن نواتج التقدم العلمي والتغير المفترض للسلو الإنساني في ظل العولمة يستوحيها السيد ياسين مما نشأ عن مؤتمر عقدته اليونسكو في باريس، ومنها أن البشرية بحاجة إلى عقود أربعة هي الآتية:

- عقد اجتماعي جديد أساسه التعليم للجميع على مدى الحياة، كون الانتقال من نموذج المجتمع الصناعي إلى نموذج مجتمع المعلومات العالمي يحول التعليم إلى عملية مستمرة مدى الحياة.
- عقد طبيعي جديد لا يكون الإنسان فيه بعد الآن السيد المسيطر على الطبيعة، وإنما المؤتمن عليها، وذلك لوضع حد لانتهاكات الموارد القائمة التي تقضي نهائياً على إمكانية التنمية المستدامة، مما يتسبب في ضياع حقوق الأجيال القادمة.
- عقد ثقافي، ونحن في أشد الحاجة إلى عقد ثقافي جديد، خصوصاً في عصر العولمة، وذلك حتى نستطيع الحفاظ على التنوع الثقافي الذي يمكن تحت ضغوط موجات العولمة الهادرة أن يندثر، وتفقد الإنسانية بذلك الثراء الذي لا حدود له لخبرات الثقافة التقليدية التي تشكلت عبر عصور طويلة، وكانت منابع حقيقية للحكمة.
- عقد أخلاقي، وهوعقد مهم وضروري لضبط سلوك العلماء والباحثين وخصوصاً بعد ظهور الثورة الجينية التي نجمت عن كشف شيفرات الجينوم البشري مما يسمح بالتلاعب في صياغة البشر، ويؤثر على التوازن الطبيعي للجنس الإنساني منذ بداية الإنسانية حتى الآن.

كل هذه العقود الأربعة – مثلما أشار السيد ياسين – تثير عدداً من المواضيع فيما يتعلق بالقيم الإنسانية. الواقع أننا – بحسب قوله – لسنا في مجال تحولات القيم وتغيرها استجابة لتحديات العولمة بحسب، ولكننا في مجال ابتداع قيم جديدة ومعايير أخلاقية مستحدثة ، وهذا هو الخطر الأكبر. (السيد ياسين، جريدة الحياة اللندنية، 22/ أغسطس/ 2010).

وعلى الرغم من أن السيد ياسين نظر إلى العولمة في جانبها الاقتصادي على أنها إعادة لممارسات الرأسمالة الغربية بمؤسساتها المالية أيام الاستعمار القديم سيىء الذكر، وعلى أنها في الجانب الثقافي تسعى لنزع الهوية الثقافية بما لها من خصوصيات خاصة لدى الشعوب، في خطوة تؤثر بها على عقول أصحابها عن طريق وسائل الاتصال الهائلة التي تملكها وتعممها في المجتمعات كافة. أقول على الرغم من سلبيات العولمة المشار إليها في مجمل مقالات السيد ياسين، فإنه لا يتوانى من أن يسجل للعولمة بعض الإيحابيات؛ مثل فتح باب المنافسة العالمية الذي دعا بعضاً من دول الجنوب إلى رفع مستوى تدريب القوى البشرية لديها مثل ماليزيا والصين اللتين تم التركيز فيهما على التعليم والبحث العلمي والتدريب مما قاد هذه البلاد من بعدُ إلى طفرة كبرى في معدلات النمو فاقت عددا من الدول المتقدمة ذاتها.

لكن الواضح أن أفكار السيد ياسين حول العولمة مقسمة بين الآثار السياسية والاقتصادية والثقافية، إلا أن الجانب الثقافي يطغى بنحو بارز على الجانبين. وقد يكون السبب في ذلك استشعاره خطورة هذا الجانب والجانب الأخلاقي بشكل لافت قياساً بالجانبين الآخرين. ومع ذلك فالخطورة مجسدة في تركيزه على العقود الأربعة التي انتهت إليها أفكاره، فهي كلها تنتمي إلى روح الثقافة وفاعليتها على الأرض. ولعل العقدين الأخيرين – العقد الثقافي، والعقد الأخلاقي – هما اللذان يحتاج أن يتذكرهما كل من يتعامل مع العولمة قبولاً أو رفضاً؛ فالعولمة منتجة لممارسات وأفعال مادية فيها نفع لمجتمعات وضرر لمجتمعات؛ فإذا لم تراع الخصوصيات الثقافية لتلك المجتمعات المتضررة، والتعامل معها بأخلاقيات منضبطة، فإن ممارسات العولمة ستعود بنا إلى قانون الغاب. وفي هذا انقلاب العولمة على مبادئها المعلنة حول حقوق الإنسان بشكل عام. والواقع أن العقد الأخلاقي ليس نهائياً كما أشار بألمعية، وإنما هو متجدد على الأيام تبعاً لاختراعات جديدة واختراقات محتملة لإنسانية الإنسان إذا لم تتوافر لها انضباطات أخلاقية تتناسب وخطورتها على البشرية جمعاء.

أما مسعود ضاهر: فعد العولمة واقعاً علينا أن نواجهه بما يمكننا من الإفادة من مقولاته لا أن نهرب من تلك المواجهة بحجج تبقينا خارج المنظومة العصرية أو التحديث الإيجابي في عالم يسير إلى الأمام ولا ينتظرنا. ففي مقالة مطولة له في مجلة العربي الكويتية بعنوان:

(حوار العرب مع ثقافات عصر العولمة: الواقع والآفاق المستقبلية) أشار إلى مخاوف شعوب العالم من زحف العولمة، فالعولمة - بحسب تشخيصه - "تساهم في تدفق الأفكار والسلع والخدمات بين جميع الدول، وهي تتجاوز كثيراً من الحواجز والقيود السابقة، وتنزع إلى توحيد العالم في مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة وما يحمل هذا التوحيد من مخاطر جدية لإلغاء التنوع الثقافي".

ولما كانت العولمة تشكل - بقوة الدفع الذي يعتمده راعيها القطب الأحادي في العالم- أحد أبرز تجليات المرحلة الراهنة في سيرورة التاريخ العالمي، فقد طرحت مقولات أساسية لتعميمها عالمياً، وهذه المقولات ترتكز - بحسب تقديره - على ثلاث قضايا شمولية، هي: " الأولى: التشديد على أن الديموقراطية هي النظام الوحيد الواجب اعتماده على المستوى السياسي. الثانية: اعتماد الليبرالية وما يستتبعها من خصخصة شبه شاملة على المستوى الاقتصادي، والثالثة: بناء الدولة العصرية على أسس مدنية لا دينية، ونشر العلوم العصرية والتكنولوجيا المتطورة".

وكان قد بدأ المقالة بتشخيص مواقف المثقفين العرب من العولمة فحصرها في موقفين؛ أولهما: يرى ضرورة الإفادة من المستحدثات التكنولوجية الغربية، لكنه يرفض مسبقاً أغلب المقولات الثقافية. وثانيهما: يدمج التكنولوجيا بالثقافة الغربية ويقف موقفاً رافضاً تماماً لمقولات العولمة كلها، ويعدها مسارات للتغريب والتبعية وليست مسارات للحداثة والتحديث. لكنه يسجل موقفاً ذاتياً يرى فيه ضرورة الحوار مع الآخر خوفاً من ضياع ثقافات إنسانية سابقة ودمجها في ثقافة عصر العولمة الموحدة بالإلحاق والتغريب وتذويب الخصوصيات المحلية. وتبعاً لموقفه هذا يرى أن إمكانية نجاح حوار المثقفين العرب مع ثقافات عصر العولمة يمكن أن يتحقق بإنفاذ حوارين: الحوار الثقافي العربي - العربي أولاً، والحوار مع ثقافات عصر العولمة ثانياً.

ويرى مسعود ضاهر أن الحوار العربي - العربي ضروري؛ لأن الحوارات الراهنة مع الجانب الآخر حوارات غير متكافئة كما تجلى ذلك من مشاركة نخب عربية متميزة في مؤتمرات عالمية عدة للحوار السياسي والثقافي والاقتصادي، فقد تكشف - من خلال تلك المشاركات - أن الساحة الثقافية العربية تعاني أزمات حادة ومتلاحقة؛ فهناك انحدار مريع على مستوى التعليم، وركود قاتل على مستوى الإبداع والإنتاج الثقافي؛ مما ألحق الدول

العربية بالدول النامية التي تستهلك ثقافة الغير أكثر مما تقدم إضافات نوعية للثقافة الكونية السائدة. ومن أجل تغيير الواقع الراهن أصبح من مستلزمات المرحلة التقاء النخب والمثقفين العرب لرسم خريطة طريق تمهد الحوار مع ثقافات عصر العولمة التي ليست محصورة في الثقافة الغربية وإنما هي ممتدة لحوارات خارجها كمثقفي الدول الآسيوية في أقصى الشرق، وروسيا، وأمريكا اللاتينية، والصين وغيرها؛ معتمداً على أن مثقفي هذه الدول وبخاصة دول جنوب وشرق آسيا نجحوا في إطلاق مقولات ثقافية جديدة دعت إلى حداثة أصيلة تحمي التراث والمعاصرة، وقادت إلى ولادة ظاهرة "النمور الآسيوية".

ويطمح مسعود ضاهر إلى أن الحوار العربي العربي متبوع بالعمل الجماعي الجاد والفاعل إلى تغيير الوضع العربي الراهن والبدء بمسيرة الإصلاح والتغيير في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية من خلال إعداد خطط عقلانية، على المدى الزمني الطويل، لبناء المواطن الحر المتفلت من قيود الانتماءات السابقة على ولادة الدولة الحديثة كالعائلية، والقبلية، والعشائرية، والطائفية، والتمييز العرقي؛ وذلك للبدء بتنمية الطاقات البشرية العربية، وإطلاق المبادرات الإيجابية لخلق منظمات عصرية فاعلة تتلاءم مع طبيعة عصر العولمة، وإعطاء كل من المرأة والشباب الفرصة لتمكينهم من بعث طاقاتهم، وممارسة دورهم الفاعل مع غيرهم في مشاريع الإصلاحات الجذرية في بنية العقل العربي ومنظمات المجتمع المدني تمهيداً للوصول إلى الدولة المدنية الحديثة. إن عملية إصلاح النظام العربي تكمن – بحسب رأيه – في كيفية إدخال العلوم الحديثة والتكنولوجيا المطورة، وتحويلها إلى عنصر فاعل في تطويرها، كما تكمن في نشر المبادئ الليبرالية التي من شأنها أن تساعد على بناء مجتمعات عربية منفتحة على الحوار الإيجابي مع ثقافة عصر العولمة وإقامة علاقات طبيعية من موقع الندية؛ إذ لا يجوز الانجرار وراء عولمة لا تقيم أي وزن للعرب، بل تعتبرهم كماً بشرياً وطاقات وموارد طبيعية يجب توظيفها في خدمة غرب متفوق، يسعى للسيطرة على العالم بكل الوسائل المتاحة.

أما الحوار مع ثقافات عصر العولمة، فيعتمد – مثلما يرى – على نجاح الحوار العربي – العربي؛ ذلك أن هذا النجاح شرط لإنجاح حوار العرب مع ثقافات عصر العولمة ومثقفيها؛ إذ بإمكان المثقفين العرب حينها فتح باب الحوار مع الآخر المعولم لمواجهة التبدلات المتسارعة على المستوى الكوني، وبإمكانهم أيضاً الاستفادة من تجارب التحديث

وبناء الدولة العصرية كما في أوروبا وأمريكا، واليابان، وروسيا، والصين، ودول النمور الآسيوية وغيرها.

وفي ختام مقالته المطولة والطموحة يؤكد ضاهر أن من واجبات المثقفين العرب إبداع مقولات ثقافية جديدة تنظر بموضوعية إلى التراث العربي والإسلامي، وتقيم حواراً معمقاً ومتواصلاً بين المثقفين العرب أنفسهم على قاعدة الاحترام المتبادل والتفاعل الثقافي المثمر، ثم الانتقال بعد ذلك إلى تعميق الحوار مع الثقافات الغربية والآسيوية وغيرها من الثقافات الفاعلة في القرن الحادي والعشرين.

وهو يذكر الجميع أخيراً بمخاطر التأخير في هذا المجال، بعد أن أصبحت الفجوة كبيرة بين ثقافتنا والثقافات العالمية الأخرى. لكن الحوار الثقافي الإيجابي من موقع الندية – مثلما يقول – كفيل بمد الجسور بين الشعوب العربية وشعوب العالم، لتغليب قيم الصداقة والتعاون والسلام بين الشعوب والحضارات. (مجلة العربي الكويتية، العدد 576، 1/ نوفمبر / 2006).

لا شك أن أفكار مسعود ضاهر في تحليله لثقافة العولمة وطرحه حاجة الإنسان العربي للحوار داخلياً مع نفسه، وخارجياً مع الآخر المعولم عالية المستوى وتشكل طموحاً غالياً يراود المثقف العربي ويلح عليه بشكل دائم. ولكن إذا ما تمثلنا الفجوة التي أشار إليها بين الثقافتين: العربية والعالمية، فإن حجم الإصلاحات التي أشار إليها تبدو طوباوية أكثر من إمكانية تحقيقها واقعاً يسمح بردم الهوة أو سد تلك الفجوة على الأقل. ثم إذا استطاع المثقفون العرب اختراق أسوار السلطة العربية المنغلقة على ذاتها، وتحقيق كل تلك الإصلاحات في بنية النظام العربي الكلي في فترة يستطيع بها التوازي الندي مع ثقافة العولمة كما ردد كثيراً، فإن المثقف العربي حينئذ لا يحتاج إلى الحوار بقدر ما يكون مؤهلاً للمشاركة في صنع عالم عصري حديث هو فيه فاعل ومنتج شأنه شأن غيره من تلك العوالم المماثلة.

لا أريد أن أبدو متشائماً حيال طروحاته الطوباوية تلك، ولكنني أعتقد أننا بحاجة إلى حلول أكثر واقعية تقربنا من الإفادة من أطروحات العولمة وتحافظ في الوقت نفسه على خصوصيتنا الثقافية الروحية المتجذرة، على أن لا نتأخر في اكتساب المعرفة العلمية

الحديث والتكنولوجية العصرية، تمهيداً للإصلاح الاجتماعي والسياسي والثقافي التدريجي الذي يحتاج إنجازه كاملاً إلى تغيير أساسي في بنية العقلية العربية، وهو تغيير يحتاج وقتاً أطول لاستيعابه وإدراك أهميته وفاعليته في التحديث والانتقال الحضاري العربي الذي لا بد منه لمواكبة ما يجري على أرض الواقع العالمي من إبداعات مفيدة للمجتمعات الإنسانية وشعوب العالم المتحضر. ومن الملاحظات المهمة حول أفكار ضاهر السابقة أنه تناول بكثافة لا تخلو من التكرار والتركيز، الإصلاحات في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لكنه نسي أمراً مهماً لم يتحدث عنه حديثاً يوازي أهميته عندما تعالج تأثيرات العولمة، هو الجانب الثقافي؛ سواء على المستوى الوطني العربي أم على المستوى الإسلامي. وقد يثير المتسائل الإشارة اليتيمة الخجول التي مس بها التراث العربي الإسلامي في آخر مقاله حين قال: "من واجبات المثقفين العرب إبداع مقولات ثقافية جديدة تنظر بموضوعية إلى التراث العربي والإسلامي" . فأين هذه الإشارة اليتيمة من أحاديثه المطولة عن الإصلاحات الكبيرة التي تمس الإنسان العربي في بنية عقله ، وإصلاح نظامه كله؟!

أما محمد عابد الجابري: فيستغرق مناقشة أهم جوانب العولمة من منطلق إحساسه بخطورتها في عولمة أو أمركة الخصوصيات الخاصة بالشعوب وبخاصة شعوب العالمين العربي والإسلامي. ومن أقواله في هذا المجال قوله: "العولمة التي يجري الحديث عنها الآن: نظام أو نسق ذو أبعاد تتجاوز دائرة الاقتصاد. العولمة الآن نظام عالمي، أو يراد لها أن تكون كذلك، يشمل مجال المال والتسويق والمبادلات والاتصال إلخ... كما يشمل أيضاً مجال السياسة والفكر والإيديولوجيا.

وفي عودته إلى المعنى اللغوي للعولمة يرى أنها "تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله. وهي تعني الآن، في المجال السياسي منظوراً إليه من زاوية الجغرافيا (الجيوبولتيك)، العمل على تعميم نمط حضاري يخص بلداً بعينه، هو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات، على بلدان العالم أجمع" . ليست العولمة مجرد آلية من آليات التطور "التلقائي" للنظام الرأسمالي، بل إنها، أيضا، وبالدرجة الأولى دعوة إلى تبني نموذج معين. وبعبارة أخرى، "فالعولمة ، إلى جانب أنها تعكس مظهراً أساسياً من مظاهر التطور الحضاري الذي يشهده عصرنا، هي أيضاً إيديولوجيا تعبر بصورة مباشرة، عن إرادة الهيمنة

على العالم وأمركته". وهو يراها نظاماً يتخطى الدولة والوطن والأمة وينحاز إلى فوضى تتقاذفها أمواج القبيلة والطائفة والمذهبية لتغرقها في صراع الإفناء، قال: "العولمة نظام يقفز على الدولة والوطن والأمة. العولمة تقوم على الخوصصة، أي نزع ملكية الأمة والوطن والدولة ونقلها إلى الخواص في الداخل والخارج، وهكذا تتحول الدولة إلى جهاز لا يملك ولا يراقب ولا يوجه. وهذا سيحقق أطراً سابقة على الأمة والدولة هي القبيلة والطائفة والتعصب المذهبي... والدفع بها إلى التقاتل والتناحر والإفناء المتبادل... إلى تمزيق الهوية والوطنية والقومية... إلى الحرب الأهلية" (العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، بيروت، العدد228 شباط 1998 ص 19).

والجابري مشغول بالتفريق بين العولمة Globalization والعالمية Universality ، كون العالمية رسالة الإسلام التي جاءت لإنعاش الروح الإنسانية في بني البشر خلاف ما عليه العولمة تماماً . فعنده أن: " العولمة " شيء و"العالمية" شيء آخر. العالمية تفتح على العالم، وعلى الثقافات الأخرى، واحتفاظ بالاختلاف الثقافي وبالاختلاف الإيديولوجي. أما العولمة فهي نفي للآخر وإحلال للاختراق الثقافي محل الصراع الإيديولوجي. العولمة إرادة للهيمنة ومن ثم قمع وإقصاء للخصوصي. أما العالمية فهي طموح للارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي. العولمة احتواء للعالم، والعالمية تفتح على ما هو عالمي وكوني. نشدان العالمية في المجال الثقافي، كما في غيره من المجالات، طموح مشروع، ورغبة في الأخذ والعطاء، في التعارف والحوار والتلاقح. إنها طريق الأنا للتعامل مع "الآخر" بوصفه "أنا ثانية"، وطريقها إلى جعل الإيثار يحل محل الأثرة. أما العولمة فهي طموح بل إرادة لاختراق "الآخر" وسلبه خصوصيته، ومن ثم نفيه من "العالم". العالمية إغناء للهوية الثقافية، أما العولمة فهي اختراق لها وتمييع. / www.aljabriabed.net) n06|01jab|awlama.htm –Cached)

وهو لذلك معني بإبراز خطر العولمة في اختراقها للعالمية التي شكلت وتشكل إغناء للهوية الثقافية، لذلك سجل موقفاً لافتاً ومكرراً في متابعة التناقض بينهما في الوسيلة والغاية. ومما قاله في هذا الشأن: "ومع أننا نؤمن بالعالمية كونها تشكل إغناء للهوية الثقافية، إلا أننا لنا موقف تجاه العولمة عندما تكون اختراقاً لها، وتمييعاً، فالاختراق الثقافي الذي تمارسه العولمة هو إلغاء الصراع الأيديولوجي والحلول محله. فالصراع الإيديولوجي صراع

حول تأويل الحاضر وتفسير الماضي والتسريع للمستقبل، أما الاختراق الثقافي فيستهدف الأداة التي يتم ذلك التأويل والتفسير والتسريع بها، إنه يستهدف العقل والنفس. في زمن الصراع الأيديولوجي كانت وسيلة تشكيل الوعي الأيديولوجيا. أما الاختراق الثقافي فوسيلته السيطرة على الإدراك في الصورة السمعية والبصرية التي تسعى إلى تسطيح الوعي" (العولمة والهوية الثقافية ص17). وتعطيل الوعي يعني تعطيل فاعلية العقل، والتشويش على نظام القيم، وتوجيه الخيال، وتنميط الذوق، وقولبة السلوك. وهذا ما أطلق " ثقافة الاختراق".

وفي متابعته لتأثير الاختراق الثقافي الفاجع رأى أن تحقيق أيديولوجية الاختراق تقوم على جملة أوهام هي ذاتها مكونات الثقافة الإعلامية في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد حددها باحث أمريكي في الأوهام الخمسة التالية: 1 - وهم الفردية. 2 - وهم الخيار الشخصي. 3 - وهم الحياد. 4 - وهم الطبيعة البشرية التي لا تتغير. 5 - وهم غياب الصراع الاجتماعي. ويفسرها الجابري بالآتي:

إن "وهم الفردية"؛ أي اعتقاد المرء في أن حقيقة وجوده محصورة في فرديته وأن كل ما عداه أجنبي عنه لا يعنيه، إنما يعمل -هذا الوهم- على تخريب وتمزيق الرابطة الجماعية التي تجعل الفرد يعي أن وجوده إنما يكمن في كونه عضواً في جماعة وفي طبقة وأمة. ...

أما "وهم الخيار الشخصي" فيرتبط بالأول ويكمله. إنه، باسم الحرية، يكرس النزعة الأنانية ويعمل على طمس الروح الجماعية سواء كانت على صورة الوعي الطبقي أم الوعي القومي أم الشعور الإنساني.

ويأتي "وهم الحياد" ليدفع بالأمور خطوة أخرى في الاتجاه نفسه: فمادام الفرد وحده الموجود، ومادام حراً مختاراً فهو "محايد"، وهكذا تعمل هذه الإيديولوجيا من خلال "وهم الحياد" على تكريس التحلل من كل التزام أو ارتباط بأية قضية.

وأما الوهم الرابع وهو "الاعتقاد في الطبيعة البشرية التي لا تتغير"، فيرمي إلى قبول الفوارق بين الأغنياء والفقراء، بين البيض والسود، بين المستغلين وبين من هم ضحايا الاستغلال، بوصفها أموراً طبيعية كالفوارق بين الليل والنهار والصيف والشتاء، ومن ثم شل روح المقاومة في الفرد والجماعة.

وأما الوهم الخامس وهو "الاعتقاد في غياب الصراع الاجتماعي" فتتويج صريح للأوهام السابقة: أي أن غياب الصراع الاجتماعي معناه الاستسلام للجهات المستغلة، من شركات ووكالات وغيرها من أدوات العولمة. وبعبارة أخرى "التطبيع" مع الهيمنة والاستسلام لعملية الاستتباع الحضاري الذي يشكل الهدف الأول والأخير للعولمة.

(راجع موقع الجابري: www.aljabriabed.net/n06_01jab_awlama.htm - Cache)

وهذا يعني أن هذه الأوهام الخمسة تقود – بحسب مفهوم العولمة للاختراق الثقافي – في نهاية الأمر إلى تشكيل مناخ إنساني في المستوى الفردي والاجتماعي لتقبل العولمة دون إشكالات تعوق حركتها في تطبيق رؤاها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، لكن يبقى السؤال المهم الذي يفرض ذاته: هل تنجح العولمة في تحويل هذه الأوهام إلى واقع؟ هل الأفراد فيما تخطط لهم العولمة يمكن أن ينزعوا أنفسهم بسهولة وبالسرعة التي نتصورها عن محيطهم الاجتماعي وولاءاتهم الوجدانية للأمة والوطن؟ إنها أسئلة قابلة للتداول بحسب وقائع التاريخ البشري في سيرورته للحياة والإنسان على اختلاف طبائع البشر في تعاملها مع الأحداث والمبادئ والسلوك. فالعولمة – يراد لها بحسب تفسير الجابري – "أن ترسمل العالم غير الرأسمالي" (قضايا في الفكر المعاصر للجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997، ص 151).

لكن الجابري – وهو الباحث في بنية العقل العربي – لا يبتعد عن توظيف العقل في مجابهة العولمة، فإذا كانت العولمة تستغل ثورة الاتصالات الحديثة لتعميم ثقافتها فإن من الممكن بل من الواجب – كما يرى – أن نستغل وسائل العولمة ذاتها في الحفاظ على خصوصيتنا الثقافية حتى لا تذوب هذه الثقافة أولا تذروها رياح العولمة العاتية. فما دمنا لا نستطيع امتلاك القوة التي تمتلكها العولمة كي نحاربها وندحرها، فإن واجبنا أن نحصن ثقافتنا لتحقيق الغاية الفضلى، حتى لو كان هذا التحصين بوسائل العولمة ذاتها كما أشار. قال: "أما العولمة الثقافية، أو في المجال الثقافي، فسيف ذو حدين. هناك اختراق ثقافي موجود من الغرب. وأمريكا تستعمل وسائل الإعلام، من تلفزيون وإنترنت وغيرها، لتوصيل رسالتها وتكريس ثقافتها. وماذا سيحدث لو استعملنا نحن كذلك وسائل العولمة التي هي وسائل تكنولوجية عامة. بالإمكان أن نستعمل كل شيء لنتقدم بطبيعة الحال، أما إذا بقينا وحرصنا على أن نبقي على وسائلنا التي أصبحت الآن متخلفة، ففي هذه الحالة سيكون

وضعنا غير مواكب للتطور وغير مواكب للعالم... فالثقافة دائماً في حاجة إلى عقل منفتح غير متعصب، ونقدي يقبل الاختلاف وينتج الاختلاف، ويسعى للاتفاق على أسس مقبولة عقلية وعقلانية، فنحن - إذاً - محتاجون إلى تفتح فكري، محتاجون إلى روح نقدية، ومحتاجون إلى فكر يحارب الإحباط الذي في أنفسنا أو الذي في نفوس بعضنا. الحاجات الأداتية أساس لأن الفكر كله أداة، نحن في حاجة إلى التحديث أي الانخراط في عصر العلم والثقافة كفاعلين مساهمين، ولكننا في حاجة كذلك إلى مقاومة الاختراق وحماية هويتنا القومية وخصوصيتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الذي يمارس علينا وعلى العالم أجمع بوسائل العلم والثقافة. والوسيلة في كل ذلك واحدة، اعتماد الإمكانات اللامحدودة التي توفرها العولمة نفسها، أعني الجوانب الايجابية منها وفي مقدمتها العلم والثقافة". (http://www.kalema.net/v1/?rpt=70&art).

يمكننا من خلال هذه الأفكار العميقة حول العولمة ومناقشاتها أن نستنتج أن أمريكا التي غدت بعد سقوط الاتحاد السوفييتي تمثل القطب المركزي الأحادي في العالم كله؛ أصبحت أقوى دول العالم عسكرياً واقتصادياً. إن هذا الأمر أغراها وحرك فيها نزعة السلطة فراحت تسعى لأن تفرض هيمنتها على المعمورة كي تعيد مرحلة الاستعمار القديم باستعمار آخر جديد، لكنها - انسجاماً مع طبيعة العصر الحديث المختلف عن القديم - سلكت إلى مبتغاها سلوكاً حضارياً مختلفاً في مظاهره، وإن ظلت بواطنه المضمرة لا تتعارض مع ما كانت عليه أهداف الاستعمار، ولكنها تُنسج بخيوط القديم بخيوط من الأسباب والأساليب الحديثة المختلفة المؤثرة.

ويمكن إيجاز تلك الأهداف في الهيمنة الاقتصادية والسياسية والثقافية تمهيداً للاستيلاء على ثروات الآخرين، ومحو خصوصياتهم، واستلاب موروثاتهم، ثم السير بها إلى ما يخدم مصالحها بخاصة وسعادة شعبها بعامة، بقطع النظر عن تدمير ذلك لمصالح الشعوب المغلوبة على أمرها، ومسح هويتها ، وتشويه ثقافتها، والإطاحة بثوابتها وقيمها الوطنية والروحية.

فالعولمة في واقع أمرها: «مفهوم استعماري جديد يمثل مرحلة أكثر تقدماً في مراحل النظام الرأسمالي الغربي بقيادة الولايات المتحدة، ويقوم على الهيمنة الاقتصادية، وعلى الاستيعاب الثقافي الحضاري للشعوب. وليست عولمة اقتصاد السوق الحر سوى قافلة تجر

وراءها عولمة ثقافية تتبع تلك الدول المعولمة لتنتشر بقوة في أنحاء المعمورة بصفتها الثقافة الفضلى الواجب اتباعها في كل مكان. لقد نتج عن هذا عالم جديد وطروحات مستحدثة تكرس واحدية القطب والإمبريالية الثقافية؛ مما مهد السبيل لفوكوياما أن يطرح مفهوم «نهاية التاريخ» في كتاب يحمل هذا العنوان مبشراً بالرأسمالية ثقافة اقتصادية واجتماعية عالمية واحدة موحدة هي المهيمنة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. وأفسح المكان لهنجتنتون أن يؤلف كتابه «صراع الحضارات» متنبئاً بحروب جديدة أساسها التباين الثقافي العالمي. قول هنجتنتون هذا – كما يفلسفه إدوارد سعيد» – يؤدي إلى أن «الانقسام الأساسي داخل المجموعة البشرية سوف يتمحور حول العوالم الثقافية التي ستصبح المصدر الرئيسي للصدام، فصدام الحضارات هو الذي سيحتل مركز الصدارة في السياسة العالمية، فهنجتنتون يصر بقوة وإلحاح على أن الحضارات غير الغربية لا بد أن تصطدم بالغرب، ويعني ذلك استمرار نطاق الحرب الباردة بوسائل جديدة». (إدوارد سعيد، صدام المفاهيم، مجلة الكرمل، رام الله، فلسطين، العدد53، 1997 ، ص 59،91). وعلى الرغم من مقصده في تهيئة العالم الغربي إلى صراعات أكثر حدة، وأعتى مقاومة فإنه على خلاف فوكوياما يعترف بالتعدد الثقافي واقعاً عالمياً ثابتاً يصعب احتواؤه في قالب ثقافي واحد كما هو هدف العولمة.

وعلى العكس من ذلك نجد (لويس كنتوري – أستاذ السياسة في جامعة ميريلاند الأمريكية المهتم بالدراسات الإسلامية (.يذهب إلى أن الثقافة التقليدية سوف تنجح في مقاومة العولمة والسبب – كما يرى كنتوري – يكمن في الفكر القومي والدولة القومية.. ويقول مؤكداً: إن كل دولة في الشرق الأوسط في أيامنا هذه تناضل من أجل هويتها ومبادئها والدول الإسلامية تفعل ذلك في إطار الإحياء الإسلامي والفكر الإسلامي. وأياً كانت النوايا فما نجده هو غير ما ورد في صدام الحضارات وفي كلام لويس كنتوري على ما في هاتين الرؤيتين من بواعث الاطمئنان لكنه اطمئنان استرخائي كسول ينطوي على توجس من خطر داهم، فلا تزال الثقافة مهددة حتى الآن بالخضوع لمزايدات سوق البضائع وسيطرة أنماط الثقافة الأمريكية. وهذا ما شجبته منذ وقت طويل دول كبيرة مثل فرنسا كما مر سابقاً، ومثل اليابان التي نادت خلال التعامل الواسع مع أمريكا بمبدئية الاستثناء الثقافي، بل استنكرت ذلك دول حليفة لأمريكا؛ ففي كندا أعلنت نائبة رئيس الوزراء سابقاً وزيرة حماية التراث شيلا كوبس بالقول: إنه إذا ما واصل الأمريكيون فرض سيطرتهم

على الجماعة الثقافية العالمية باستعمال الوسائل التي يمتلكونها، فعليهم أن يتوقعوا لجوء الآخرين إلى إجراءات انتقامية بحقهم. ولم يتوقف الموقف الكندي عند حدود الاستنكار الكلامي فقد فرضت الحكومة الكندية على الإدارة الأمريكية استبعاد كل الصناعات الثقافية ولاسيما في مجال السمعي والبصري. من جهة أخرى فإن هواجس خطر سيطرة العولمة على الثقافة لا تزال تطارد العقل العربي لتتحول إلى ديناصور جديد يهدد الكيان الثقافي العربي. هذا التوجس نجده في الخطابين القومي والإسلامي على حد سواء، وهو من ثم ينسجم مع الخطاب الإعلامي السلطوي الهادف إلى احتكار الوعي. وبذلك لا نريد تعزيز الثقة بالعولمة وتبرئتها من الاختراق الثقافي.(يحيى راضي، مجلة الواحة الخليجية، العدد 16، 20/ 2/ 2011). ومن هنا ندرك الفهم الشمولي الذي ميز أطروحة الجابري حول الاختلاف الواسع والعميق بين طروحات العالمية والعولمة:إنهما يسجلان نظرتين متناقضتين للعالم والبشرية جمعاء. فالأولى تهدف بكل بمبادئها السامية إلى استنارة البشرية وحمايتها من آفات مادية وروحية محتملة، وتقودها إلى آفاق رحبة من التفاؤل بالخير والآمال العراض. أما الثانية فتستحدث للبشرية فضاءات موهومة لتتردى بها وتعاني ويلاتها وعذاباتها.

* **

العولمة والعالم الافتراضي

وفي هذا السياق لا بد في تحليل عالم العولمة من أن نستذكر ما ينقله توملينسون ثيربورن Therborn من أن «الربط بين الأحداث المهمة والتحولات الاجتماعية الكبرى ينطبق على نتائج الاكتشافات المهمة: عصر البخار، عصر الذرة، عصر الحاسوب، أو على التحولات في الأفكار والمنطق الثقافي: عصر التنوير، أو في الحقيقة على خلائط من الاثنين: العصر الرقمي». Digital Age. ما يعنيه ثيربورن هو أن التحولات في الأفكار والمنطق الثقافي للعولمة انتهى إلى أن يسمى عصرها العصر الرقمي. ولتوضيح النزعة الرقمية Digitization روعي أن البرمجيات هي خط المواجهة بين الآلة الصارمة بحدتها القاطعة، والواقع بتضاريسه، وألوانه، وغموضه وتميعه. كان لا بد – لكي تكسب الآلة صفة العمومية تلك – من أن تتم هذه المواجهة على أقصى مستويات التجريد البحت. ولما لم

يكن ما هو أكثر تجريداً من الأرقام، أسبغت على الكمبيوتر[الحاسوب] صفة الرقمية. ولم يكتف بالأشياء التي ذات طبيعة رقمية كالمسافة والزمن والطول والوزن والحجم ، وإنما تحولت النصوص، والكلام المنطوق، والموسيقى، والقوانين، والقواعد أيضاً إلى أرقام. (نبيل علي: العرب وعصر المعلومات، عالم المعرفة، عدد 184، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الويت، إبريل/ نيسان، 1994).

أو بمعنى أوسع؛ طال ذلك التحول الأحوال الإنسانية إلى أشكال رقمية؛ بحيث أصبح البشر والأشياء والموضوعات مجرد أرقام في عالم الشبكة العنكبوتية والإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي في العصر الحاضر الذي سمي أيضاً بالفضاء الافتراضي (Virtual Space) وهو – كما يصفه شاكر عبد الحميد – مختلف عن « معنى الحيز المكاني المحدد بالمعنى الطبيعي المادي. إنه عالم موهوم مستحدث من خلال الإنترنت، وشبكة الاتصال العالمية، ومواقع البريد الإكتروني، وأنظمة الواقع الافتراضي» (عصر الصورة: السلبيات والإيجابيات، عالم المعرفة، عدد 311، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير2005، ص 394).

والاختلاف بينهما (الطبيعي والافتراضي) أن المكان الأول يمس الإحساس الإنساني ويؤثر فيه ويتأثر به، لكن المكان الثاني، أو اللامكان – كما سماه بعضهم – فبعيد عن أن يولد إحساساً إنسانياً من نوع ما. قال مايك كرانغ: «فحول المكان الحقيقي يمكن الرجوع في التفكير للتأمل في ما سمي بروح المكان الفريدة، وهي تسمية تستعمل لاقتراح أن الناس يجربون شيئاً يتجاوز خصائص الأماكن الطبيعية أو الحسية، ويستطيعون الإحساس بارتباطهم بروح المكان، إذا كان معنى المكان يمتد وراء المرئي، ووراء الواضح إلى عوالم العاطفة والإحساس. أي ربط إنسانية الإنسان بإحساسه العيش في أماكن ذات مغزى، ومن هنا قيل: «لكي تكون إنساناً عليك أن تعيش في عالم مليء بأماكن ذات مغزى. لكي تكون إنساناً عليك أن تملك وتعرف مكاناً».(مايك كرانغ: الجغرافيا الثقافية، عالم المعرفة، عدد 317، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو، 2005، ص148).

أما الفضاء الافتراضي فهو عالم يختلط فيه الواقع بالخيال، ويتم التلاعب فيه بالحقائق والصور، ويستبق الافتراضي فيه حدوث الواقعي ويسبقه، ويكون الزمن الافتراضي فيه سابقاً على الزمن الواقعي. هو عالم تختلط فيه الصور بالواقع، وبشكل

لا يمكن الفصل فيه بينهما (شاكر عبد الحميد: عصر الصورة، عالم المعرفة، عدد 311، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 2005، ص407). والصور المذكورة هنا تعني الصور الرقمية التي تغلب عليها «ثقافة المظهر والشكل والإبهار واللمعان والاستعرض والمهرجان على حساب ثقافة الجوهر والمضمون والقيمة والعمق، ومن هنا كان ماسماه بودريار» صنمية الصورة «، حيث تصبح الصورة المصنوعة، التي هي مجرد انعكاس للواقع، هي الواقع ذاته... وينظر إليها الناس على أنها طبيعية، ويتوجهون إليها بأحلامهم وأمنياتهم فتصبح « صنمية « الطابع. ومن هنا يكون دورها في تزييف الوعي وغيابه أيضاً، كما أنها تلعب دوراً في عمليات» التشيؤ «الإنساني، أي تحول الإنسان إلى شيء أو سلعة «. (السابق ص 429-430). من هنا ندرك وصف الجابري لعالم العولمة بأنه عالم «من دون دولة ومن دون وطن، ومن دون أمة. إنه عالم المؤسسات والشبكات العالمية الذي يجعل من المعلوماتية الفضاء الذي تصنعه شبكات الاتصال وطناً له يسيطر ويوجه الاقتصاد والسياسة والثقافة». (العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، بيروت، ص19).

* **

خاتمة

هكذا إذن هي العولمة: اختراق ثقافي اجتماعي اقتصادي تحقيقاً لأهداف موجديها من العالم الرأسمالي الغربي بقصد رسملة العالم، أو أمركته، مقدمة لاستعماره من جديد، ولكن بأساليب ووسائل أكثر تطوراً وأدهى حنكة . ومن أهم تلك الأساليب والوسائل:

أولاً: الشركات العملاقة العابرة للقارات والقوميات للسيطرة على العالم اقتصادياً دون أدنى منافسة من أي شركات أخرى محتملة في أي مكان.

ثانياً: الاتصالات الحديثة التي تشكل ثورة تكنولوجية هائلة كالفضائيات والإنترنت وتوابعهما للتأثير على عقول الآخرين في الدول الضعيفة أو النامية وتوجيهها لتمكين أهداف العولمة في نفوس مستخدميهما.

ثالثاً: الميديا الفائقة التي تغذي الفضائيات بمواد معلوماتية هائلة مصطنعة لا تجعل مجالاً لاستعمال ما يناقضها أو يكون قادراً على منافستها في الفاعلية والتأثير.

رابعاً: استبدال المكان الافتراضي بالمكان الطبيعي لانتزاع الناس من روابطهم الذاتية والاجتماعية؛ فالأمكنة هي نبع المشاعر وحفظها وترسيخها في النفوس والعقول. إنها البيت والقرية والمدينة والوطن. يقول باشلار عن البيت: إنه « يشكل بصورة تخيلية جانباً من الذات الإنسانية (كساكن) – وفي الحقيقة فإن البيت يصبح جزءاً من الذات المجسدة – (المنزل في الجسد)» (توملينسون: العولمة والثقافة، ص 161). وهكذا؛ فإذا ما ابتعد الإنسان عن أن يرتبط بالبيت وبالأمكنة الحقيقية بشكل عام أصبح بلا قيمة تربطه بالأرض وما عليها. ومن هنا يصبح قابلاً للاستحواذ والتوجه صوب ما توجهه حاجته أو مصلحته. أي يصبح بلا مكان وبلا روابط ،وهذا ما تخطط العولمة له تماماً. قال عالم الانثربولوجيا الفرنسي مارك أوجيه (Auge.M.): « إذا أمكن تعريف مكان ما على أنه علائقي Relational وأنه تاريخي، وأنه معني بالهوية، فإن الحيز الذي لا يمكن تعريفه على أنه علائقي، أو تاريخي، أو معني بالهوية سيكون لا مكان» (السابق، ص148-149) واللا أماكن هي – بحسب استنتاج توملينسون – هي نواح محلية كئيبة تنتمي إلى الحداثة المعاصرة. أماكن تنطوي على العزلة، والصمت (حتى في وجود الآخرين)، وإغفال الهوية، والاغتراب، وسرعة الزوال. إنها أماكن يكون فيها التفاعل وسائلياً. (السابق، ص151). أليست هذه هي ما تجلبه العولمة من وسائل الاتصال الحديثة كالإنترنت وغيرها، أو ما سمي بالعالم الافتراض اللامكاني؟!.

لكن العولمة وهي تهدف إلى تسيير العالم لخدمتها بوسائلها تلك، لا تخلو من أن توجد في طريقها وسائل حديثة أخرى يمكن أن تستخدم أيضاً في أغراض مهمة ومفيدة للبشرية خارج الكوكبة المعولمة. إدراكاً لهذه الحقيقة لا بد من أن نسأل سؤالاً مهماً، وهو ماذا نحن فاعلون؟ ما موقفنا من هذا التحول الوافد الجارف السريع؟.

كنت سجلت في السابق جواباً عن هذا السؤال نشرته جريدة الرياض السعودية عام 2003م قلت فيه: «العولمة بمؤسساتها المالية المسيطرة وممارستها هي استعمار جديد تماماً كالاستعمار الكلاسيكي عتيق الطراز، حيث يستولي على ثروات الآخرين ومواردهم، ولكنه يختلف عنه بأنه لا يحقق أهدافه من خلال الاحتلال العسكري المباشر كما كان يفعل، بل من خلال عمليات أكثر ذكاء وحنكة تتم في الخفاء، وقد مكنت لها واتاحتها الاختراعات العلمية الحديثة ووسائل الإدارة المستخدمة، لقد ترددت كثيراً باستعمال كلمة "الاستعمار"

ولكنني لم أستطع أن أجد مصطلحاً آخر يسمي الأشياء بمسمياتها مثله. والسؤال الملح الآن هو: ما موقف الأمة العربية عندما تعرضت للاستعمار بأشكاله المختلفة؟.

أماالخيار الأول فهو أن نذعن فننساق وراء المغريات فيما يقدم لنا ونقلده تقليداً أعمى مضحين بكل ما لنا من تراث وفكر ومبادىء.

وأما الخيار الثاني فهو أن ننكفىء على ذواتنا مبتعدين بأنفسنا عما في العالم من تطور وتجديد لتتفشى فينا الخرافات وتسود فينا الأوهام فتتعطل قوانا ويضمحل ذكاؤنا.

وأما الخيار الثالث والأخير فهو أن نكون "أمة وسطاً" نعمل في اتجاهين: أولهما أن نعزز ثقتنا بأنفسنا بالاستناد إلى موروثنا الثقافي والحضاري الأصيل والعظيم وثانيهما أن نشارك في التطور والتحديث المعاصر بما لا يؤثر على خصوصيتنا التي نكون قد أرسينا مبادئها ثابتة وراسخة في قلوبنا ووجداننا، واقعاً منتجاً في عملنا وسلوكنا. ويتطلب منا كلا هذين الاتجاهين واجبات وأعمالاً، منها: المحافظة على عقيدتنا بتمكينها في النفوس؛ لأنها الحافظ الأمين لنا من الزلل والخطأ والانحراف، والإيمان بالقيمة الفضلى لتراثنا والعمل على إحيائه بالعودة إليه والتنقيب فيه لإبراز الجوانب المضيئة، واستخدامها مادة أصلية في مناهجنا الدراسية وخططنا التربوية، إضافة إلى الحرص على اللغة العربية الفصحى تعليماً وتدريباً واستخداماً يومياً، وعلى الإعلام ووسائله المختلفة. وأن نسعى لتعميق الروح الدينية وإبراز أصالة التراث الحضاري والثقافي وقيمة اللغة العربية لنعزز ثقافة أبنائنا بما لدى أمتهم من إنجازات إنسانية جليلة. وعلى الروابط والهيئات الثقافية أن تتبنى خططاً واعية وذكية خدمة للأهداف المبدئية والقومية. إن الجانب الثاني "جانب المعاصرة" الموازي للجانب الأول "جانب الأصالة"، يتطلب منا أيضاً أعمالاً وتبعات، منها: المبادرة لاكتساب كل جديد لا يتعارض وقيمنا الثابتة كاكتساب مهارة الحاسوب والإنترنت وغيرها من المهارات والمعارف النافعة وضرورة الاهتمام الزائد بالترجمة من كل اللغات المفيدة وعلى كل صعيد، والواقع أن مهمة الترجمة مهمة عسيرة يجب أن ينهض بها أبناء الأمة جميعاً. ومن المفيد أن تتأسس مراكز عربية متخصصة ومسؤولة في ترجمة ما يستجد من معارف وعلوم، وعلينا ألا ننسى بعض تجاربنا السابقة المهمة في هذا المجال مثل ما حدث زمن المأمون حين كان يمنح المترجم وزن ما يترجمه ذهباً؛ مما أكسب الثقافة العربية الإسلامية الكثير من علوم الأمم الأخرى كالإغريق والفرس والهنود والصينيين، كما لابد من متابعة الثقافة العصرية في النقد والأدب

وتوظيف ذلك في النهضة الأدبية العربية على ألا نغالي في هذا مغالاة يتحول فيها أدبنا إلى أدب غريب عن أذواقنا، وبعيد عن طبائعنا، ليصير نقدنا تهويمات ورموزاً بعيدة عن أن تفيد ثقافتنا وجمال لغتنا بشيء أصيل. علينا أن نتذكر أن في الطروحات النقدية العالمية الحديثة شيئاً مما كان لدينا في يوم من الأيام، نجد ذلك عند الجاحظ في كتابيه الحيوان والبيان والتبين وعبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، وحازم القرطاجني في منهاج البلغاء ، وأمثال ذلك لدى الفلاسفة المسلمين كالفارابي في العبارة وابن سينا في الشفاء، ولا ننسى ابن رشد الذي أخذ عنه الأوروبيون الكثير. وقد كان في تراثنا نماذج كان لها إنجازات مشهودة في شتى مجالات العلم مثل ابن خلدون الذي سبق غيره من المهتمين في حقل الاجتماع؛ فهو بحق وباعتراف الجميع مؤسس علم الاجتماع. ولا ننسى ما قدمه العلماء من عرب ومسلمين في حفظ تراث اليونان وإيصاله للغرب. وتلك الجهود في مجالات المعرفة والثقافة التي لها الفضل دون غيرها بإيصال الحضارة إلى أوروبا عبر بوابة الأندلس، وإضافة إلى ذلك لابد من العمل على الحفاظ على الأدمغة العربية المبدعة وإيقاف هجرتها للإفادة من إبداعاتها ومنجزاتها الحالية والمستقبلية بكل الإمكانات المتاحة وهي كثيرة ". (جريدة الرياض، الرياض، 4 تشرين الثاني- نوفمبر- 2003).

وأرى أن هذا الخيار ما زال هو الخيار الممكن والأفضل؛ لأنه هو الخيار الذي أشار إلى مثيل له بعض من نوقشت آراؤهم هنا مثل السيد ياسين ومحمد الجابري وحسن حنفي ومسعود ضاهروغيرهم ممن لم يتسع المجال للوقوف عند آرائهم.

المراجع

أ – الكتب

- أبو إصبع/ صالح: العولمة والهوية، تحرير صالح أبو إصبع وآخرين، منشورات جامعة فيلادلفيا، عمّان/ الأردن، 1999.
- بوستر، مارك Mark Poster: الأمم والهويات وتكنولوجيا العولمة، ضمن كتاب: العولمة والنظرية الأدبية، إشراف عز الدين إسماعيل، القاهرة، 2000.والكتاب يضم وثائق أعمال المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي.
- توملينسون، جون John Tomlinson : العولمة والثقافة ، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، عالم المعرفة، العدد354 ، الكويت، أغسطس، 2008.

- الجابري، محمد عابد: قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997.
- الخطيب، نبيلة: تراثنا الواقع والمستقبل، جمعية بيروت التراث، بيروت، يوليو 2002.
- عبد الحميد، شاكر: عصر الصور: السلبيات والإيجابيات، عالم المعرفة، العدد 311، الكويت، يناير 2005.
- أعلي، نبيل: العرب وعصر المعتومات، عالم المعرفة، العدد 184، الكويت، إبريل/ نيسان 2005.
- هيرست/ بول Paul Hirst، وثومسن / غراهام Graham Thomson: ما العولمة: الاقتصاد العالمي وإمكانات التحكم، ترجمة د. فالح عبد الجبار، عالم المعرفة، العدد 273، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر، 2001.
- كرانغ، مايك Mike Crang: الجغرافيا الثقافية، ترجمة سعيد منتاق، علم المعرفة، العدد317، الكويت / يوليو 2002.

ب - المجلات والصحف

- مجلة الطريق، حمص، العدد 24، تموز / آب 1997م.
- مجلة العربي، الكويت، العدد، 576 ، أغسطس 2010م.
- مجلة الكرمل، رام الله، العدد 53، 1997م.
- مجلة المستقبل، بيروت، العدد 228، شباط 1998م.
- مجلة الواحة الخليجية، العدد 16، شباط 2011م.
- صحيفة الجمهورية، صنعاء، 21 سبتمبر/ أيلول 2006م.
- صحيفة الحياة، لندن، 22 أغسطس، 2010م.
- صحيفة الرياض، الرياض، / 4 تشرين الثاني- نوفمبر 2003م.

ج - المواقع الإلكترونية

- http://www.aljabriabed.net/n06_01jab_awlama.htm -Cached - http://www.alkhaleej.ae/portal
- http://www.attactanger.com/news.php?extend.149-Cached
- http://www.blog.amin.org/faresdahaher/2010/06/02 -
- http://www.forum.alnel.com/thread-5763.html
- http://www.kalema.net/v1/?rpt=70&art
- http://www.qamat.net.vb/ hgHodvm>